

الأديب و المفكر الراحل رمضان عبد الرحمن لاوند

خاطرة جريدة المساء

-5-

هل الحياة جديرة بأن تعاش؟

هذا هو السؤال الذي يليه أبرز المفكرين في العلم العربي.. والواقع أنّ ألبير كامو الكاتب الفرنسي المعروف كان ولا زال من أبرز هؤلاء المفكرين الذين يلقون هذا السؤال، يتساءلون باستمرار عما إذا كانت الحياة جديرة بأن تعاش.

ومما يلفت النظر أنّ أكثر هؤلاء الكتّاب يقرّرون بأنّ الحياة غير جديرة بالجهود التي يبذلها الإنسان، أيّ إنسان، في سبيل الاحتفاظ بها والدفاع عنها.. وقد اصطلح على تسميتهم بإسم " العبيثون " أي الذين يعتبرون الحياة الدنيا ظاهرة عبثية.. فهي في رأيهم خالية من الجدية ولا يعني البقاء فيها شيئاً بالنسبة لهم غير استمرار العذاب وتتابع حالات القلق والاضطراب لها.. إنّها جافة خالية من كل جمال ليس فيها أي أعزاء أو حافز جدّي على البقاء.. ولذلك فإنّ هؤلاء الكتّاب وعلى رأسهم ألبير كانو نفسه لا يجدون خيراً من الانتحار، بل يعتبرون قتل النفس قمة من قمم الحكمة ووسيلة ضرورية للتخلّص من أثقال الحياة ومآسيها.

ولا عجب في أن يتفق هؤلاء الناس على اتخاذ مثل هذا الموقف لأنّهم يفتقدون الفرح والأمل كما يفتقدون الثقة بمستقبل قادم للإنسان بعد الموت.. فالإنسان عندهم يخرج من العدم ليعود إليه بعد الموت، وبين خروجه من العدم وعودته إليه لا يلتقي غير أشياء سخيّة ولا تحسّ غير إحساس واحد هو الخيبة.

أمّا نحن الذين ننتمي إلى مجموعة بشرية مختلفة فإننا نتميّز من هؤلاء المتشائمين بروح التفاؤل، أولاً لأنّ الحياة الدنيا في رأينا ليست وجوداً تافهاً بين عدمين بل هي وجود حقيقي يقوم بمهّمة بالغة الجدّية، إنّه يمارس تجربة من أروع التجارب وأحفلها بالأصالة والخصوبة والشجاعة.. كل يوم من أيام هذا الوجود هو امتحان عسير لقدرته على تحقيق تلك الأصالة والخصوبة والإنصاف بالشجاعة المطلوبة.. والوجود عندنا مستمرّ بعد الموت على صورة من الصور قد لا ندرك مواصفاتها ولا مقوماتها بحواسنا ولكن نداءً عميقاً عاصفاً في فطرتنا العميقة يؤكّد لنا استمرار هذا الوجود على صورة خاصة.. وإذا كان العبيثون يجدون في الانتحار القضية الفلسفية

الكبرى التي تستحق الإهتمام فإننا نحن نجد في الحفاظ على الحياة والدفاع عنها تلك القضية الفلسفية الكبرى التي تستحق الاهتمام.

من أجل ذلك، حُرِّم الانتحار في علمنا الخاص بنا، وقدّمت مشكلات الحياة لنا على أساس أنّها الوسيلة الوحيدة التي نحقق بها ذاتنا وننسى قدراتنا ونمتحن أصالتنا.. وإذاً، فالانتحار عندنا جريمة هي كجريمة قتل الآخرين. والفضل في هذا كله يعود إلى إيماننا بالذات الإلهية التي منحتنا نعمة الحياة ووضعتنا أمام تحدياتها المحيية.

ولو فرضنا أنّ الإنسان لم يرزق هذا الإيمان بالوحدانية لوجب أن يجد في دوافع الغريزة عنده ما يمنعه من قتل نفسه.. إنّ في أعماق كلّ منّا إحساساً قوياً بالحياة ورغبة جارفة في الحفاظ عليها، وليس في دنيانا ما هو أشدّ تزييفاً للحقيقة من الزعم بأنّ الانتحار شجاعة كبرى.

والحقيقة أنّ الانتحار هو حصيلة الخيبة والفشل وعمى البصيرة والصمّ عن الاستماع إلى صوت الفطرة في الأعماق.. إنّ الشجاعة الحقيقية هي في النهوض لمسؤوليات الحياة الدنيا والصبر أمام المكاره والإصرار عن البحث عن الجمال والمتعة والاستنارة بالقيم الرفيعة، ولئن تفاوتت الناس في روح التفاؤل في النفوس، فذلك لأنهم يتفاوتون في التمتع بروح الشجاعة والصبر في حياتهم.